ISSN: 2757- 5918

عرض السنة على العقل

د. عبد العزيز محمد الخلف[1]

الملخّص: يجعل العقلانيون من العقل حاكماً على السنة، فإذا ما تعارض عقل وسنة فهذا يدل على أن السنة غير ثابتة.

وللتعارض بين السنة والعقل أشكال؛ فقد يكون التعارض بين السنة والمسلمات العقلية أو ما يطلق عليه بدائه العقول، وقد يكون التعارض بين السنة والواقع المشاهد، وقد يكون التعارض بين السنة والعلم الحديث، وجميعها تقدم على السنة حين التعارض عند العقلانيين.

ويتهم العقلانيون المحدثين بأن منهجهم لم يراعِ أن يكون المتن معقولاً، ولذلك رووا أحاديث تخالف العقول؛ لقصور منهجهم واعتلال أدواتهم.

أما المحدثون فإنهم لا يهملون دور العقل في بيان الصحيح من السقيم، ولكنهم يضعون العقل في مكانه المناسب له، فليس كل أمر يمكن أن يكون للعقل كلمة فاصلة، كما يرى المحدثون أن مخالفة الواقع تؤثر في قبول الحديث، ولكنهم يشترطون أن يكون الواقع جازماً والتعارض بينه وبين الحديث مستحكماً. وكذلك الحال في مخالفة العلم الحديث، إذ هي مؤثرة على القبول والرد عندما تكون المخالفة جازمة ولا سبيل للجمع بينهما.

ويحاول هذا البحث أن يناقش هذه القضايا، مقارناً بين منهج المحدثين وادعاءات العقلانيين.

الكلمات المفتاحية: العقل, السنة, معارضة, المحدثين, العقلانيون.

SÜNNETİN AKLA ARZEDİLMESİ

Gaziantep Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

Özet: Rasyonalistler akıldan hareket ederek sünneti akla mahkûm bırakmakta, bir sünnet ile akıl çeliştiğinde, o meseleyi reddedip sabit olmayan bir nas olarak değerlendirmektedirler. Sünnet ile akıl arasındaki çelişkinin farklı şekilleri vardır. Bazen sünnet ile aklî kurallar ve kriterler çelişirken bazen de sünnet ile görünen bir vâkıa çelişebilir. Veya sünnet ile modern bilim arasında çeşitli zıtlıklar olabilir. Akılcılar, işte bu çelişki

[1] Abdulaziz Muhammed El-HALAF, İlahiyat Fakültesi, Hadis bölümü,
مدرس الحديث النبوي بكلية الإلهيات – جامعة غازي عنتاب التركية dr.azeez@hotmail.com

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

durumlarının hepsinde aklı sünnete tercih etmektedirler. Rasyonalistlere göre hadis âlimleri metodolojik olarak, rivayet ettikleri hadis metinlerinin makul olup olmadığını gözetmemişler ve bu sebeple de akla ters düşen bazı hadisler rivayet etmişlerdir. Aslında hadis âlimlerinin herhangi bir hadisin doğruluğu ve sıhhati hakkında bir karar vermek için hiçbir zaman aklın rolünü ihmal etmedikleri görülmektedir. Fakat akla onun için en uygun konumda yer vermişlerdir. Zira her şeyde aklın belirleyici bir rolünün olması mümkün değildir. Hadis âlimleri vâkıaya muhalif olmanın hadisin kabulünde etkili olduğunu kabul etmektedirler. Ancak bunun için vâkıanın kesin olmasını ve hadis ile söz konusu vâkıa arasındaki çelişkinin de kesin olmasını şart koşmuşlardır. Aynı şekilde bilimsel bir gerçekle hadisin çelişmesi de o hadisin kabul veya red edilmesinde etkilidir. Ancak bu, teâruzun kesin olması ve hadis ile bilimsel bilginin cem' edilmesinin mümkün olmadığı durumlarda geçerlidir. gerekir. İşte bu araştırma, yukarıda zikredilen konuları hadisçilerin metodolojisi ve rasyonalistlerin iddiaları ile karşılaştırmalı olarak ele almaya çalışmaktadır.

Anahtar Kelimeler: Akıl, Sünnet, Teâruz, Hadisçiler, Rasyonalistler.

Valid rationalization of Sunnah.

Senior lecturer of Hadith sciences in the University of Gaziantep, Department of theology.

Abstract: Rationalist judge Sunnah based on the reason, hence, if there was an apparent contradiction between reason and Sunnah, the question the authenticity of Sunnah.

The contradiction between Sunnah and reason might take different forms in different contexts, so, it might be between the reason and the basic rational rules (self-evident), or between Sunnah and the observable reality, or it might be between Sunnah and modern science, or Sunnah and interest, and in all these cases, rationalists give preference over Sunnah.

Rationalists argue that the narrators of Hadith traditions didn't take into consideration the rational validity of the text, therefore, they narrated Hadiths that are illogical.

In fact, Scholars of Hadith never neglected the role of intellect to decide on the authenticity of the Hadith, however, they don't overburden the intellect out of its arena. Scholars of Hadith for instance, the question the validity of the hadith it indeed contradicts the obvious reality, but the contradiction must be real and not based on speculative source. Same thing applies if there was a definitive conflict between Hadith and science and that cannot be reconciled, and it should be proved that it contradict with Hadith

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

tradition, consequently, hadith can be rejected.
This research aims to investigate these claims and to compare between the methodologies of Hadith scholars (*Muhadditheen*) and the rationalists.
Keywords: *Sunnah*, Intellect (Mind), *Muhadditheen,* Conflict, Rationalits

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن سار على نهجم واقتفر أثرهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن من المعلوم بداهة أن المحدثين كانوا يستخدمون وسائل متعددة للحكم على الأحاديث قبولاً ورداً، وعلى الرجال جرحاً وتعديلاً، ومن أهم الوسائل التي استخدموها في ذلك: العقل.

إلا أن استخدامهم للعقل كان في المجال الذي يمكن للعقل أن يكون حاكماً فيه، ذلك أن أساس القبول والرد عندهم إنما هو صدق المخبر أو كذبه، يقول الشافعي مبيناً هذا الأصل: "ولا يُستدل على أكثرِ صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المُخبِر وكذبه، إلا في الخاصِّ القليل من الحديث، وذلك أن يُستدل على الصدق والكذب فيه بأن يُحَدِّث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله، أو ما يخالفه ما هو أَثبتُ وأكثرُ دلالاتٍ بالصدق منه"[2]، فالأصل هو الصدق والكذب، وإنما يستخدم العقل قرينةً على الصدق أو الكذب.

أهمية البحث

تتجلى أهمية البحث في كونه يبحث في قضية مهمة ما زال بعض المنسوبين للمدرسة العقلية يرددونها، ألا وهي أن منهج المحدثين الشكلي أدى إلى قبول أحاديث تخالف العقول، وذلك بسبب قصور منهجهم واعتلال أدواتهم. فجاء هذا البحث ليبحث في هذه القضية.

وقد حاولت في هذا البحث أن أتتبع عمل المحدثين في ذلك، مع إيراد استشكالات العقلانيين وبيان موقف المحدثين منها.

---

2 محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، مكتبه الحلبي، مصر، ط1، 1358هـ/1940م، 398.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سبب اختيار البحث

عندما كنت أقرأ لبعض العقلانيين ادعاءهم أن منهج المحدثين أدى إلى وضع أحاديث تخالف العقول، بسبب قصور منهجهم القائم على النظر إلى السند وحده، كنت أتذكر دائماً قول الإمام الشافعي سالف الذكر، وهو ينص صراحةً على أن حديث المحدث بما لا يجوز مثله كافٍ في رد خبره، وهو إثبات للنقد العقلي، فكنت أوقن بالجهل أو التجاهل الذي يقومون به، فأردت أن أكتب في هذا الموضوع بحثاً يجلي حقيقة الأمر.

إشكالية البحث

يجيب البحث عن أسئلة متعددة منها:

1- هل استخدم المحدثون العقل وسيلةً للحكم على الأحاديث قبولاً ورداً؟

2- ما هو شكل المخالفة التي تجعل الحديث مردوداً دونما نظر إلى سنده؟

3- ما هو أثر مخالفة الواقع أو العلم الحديث في الحديث النبوي قبولاً ورداً؟

4- هل التزم دعاة العقلانية بمعايير تضبط قضية عرض الحديث على العقل؟

أهداف البحث:

ونهدف من هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

1- بيان منهج المحدثين في استخدام العقل في الحكم على الأحاديث.

2- بيان المجالات التي يمكن أن يكون العقل فيها حاكماً على الروايات الحديثية.

3- بيان القواعد المعيارية التي تحكم هذا الاستخدام.

4- بيان مدى تماسك منهج المحدثين في استخدام العقلية وسيلة للحكم على الروايات الحديثية.

5- استنباط أوجه عقلانية النقد المنضبط عند المحدثين، بخلاف دعاة العقلانية المنفلتين من كل ضابط.

الدراسات السابقة

لم أجد من أفرد هذه المسألة بالبحث، وإنما كانت أغلب الجهود حول بيان مكانة العقل في النقد الحديثي، وبيان موقف المدرسة العقلية المعاصرة من السنة النبوية. ومن تلك الجهود:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية.

2- الاتجاه العقلي وعلوم الحديث للدكتور خالد أبا الخيل.

3- مقاييس نقد متون السنة، للدكتور مسفر الدميني.

4- موقف المدرسة العقلية الحديثة من السنة النبوية، للأمين الصادق الأمين.

ما يضيفه البحث:

1- يستعرض البحث كل الأوجه العقلية التي يمكن أن تكون مؤثرة على الحكم على الحديث.

2- يبين أوجه القصور في النظرة العقلانية في نقد الحديث.

3- بيان المجال الذي يمكن للعقل أن يكون حاكماً فيه، ووضع ضوابط لذلك.

حدود البحث

قصرت البحث على العقلانيين المعاصرين، دون بيان مناهج العقلانيين المتقدمين. كما أني لم ألتزم بمدرسة عقلية محددة، وإنما تتبعت الأفكار بغض النظر عن قائليها، بل ربما كانت بعض الأفكار منسوبة لأشخاص لا يمكن تصنيفهم ضمن المدرسة العقلانية، ولكن الفكرة مما نادى بها العقلانيون أو تتماشى مع نظرتهم. ولذلك فإن أي تعميم ورد في هذا البحث فهو غير مراد على عمومه.

كما أني أدخلت في مفهوم عرض السنة على العقل عرض السنة على العلم الحديث والواقع المعاصر لأن رد الحديث إذا خالفهما قائمٌ على نظرٍ عقليٍّ بحت، ولذلك فهما جزء أصيل من مسألة عرض السنة على العقل، فلا بد من بحثهما.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي المقارن، فتتبعت عمل المحدثين في هذا المضمار، ولا أزعم أنه استقراء تام، فذاك ما لا يستطيعه فردٌ، ولكنه استقراء ناقص يمكن تعميم أحكامه على ما لم يستقرأ من الروايات.

كما اعتمدت على المقارنة بين أقوال المحدثين، ومقارنة الأحاديث النبوية بالظواهر العقلية، مستعيناً بالتحليل وفرز عناصر الحوادث، ومن ثم إعادة تركيبها وصولاً إلى ما هو الأقرب إلى الصواب حسب جهدي واستطاعتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطة البحث:

جاءت خطة البحث متضمنة مقدمة اشتملت على أهمية البحث وسبب اختياره ومنهجه وأهدافه والدراسات السابقة، وتمهيد ومجموعة من المحاور وفق الآتي:

أولاً: عرض السنة على بدائه العقول.

ثانياً: عرض السنة على الواقع المعاصر.

ثالثاً: عرض السنة على العلم الحديث.

وختم البحث بخاتمة لأهم نتائج البحث وتوصياته.

تمهيد:

يجعل العقلانيون من العقل حاكماً على السنة، فإذا ما تعارض عقل وسنة فهذا يدل على أن السنة غير ثابتة، وهذا تابع لمبدأ تقديم العقل على النقل عند التعارض؛ لأن العقل .كما يقولون .دليلٌ قاطعٌ، وحديث الآحاد دليلٌ ظنيٌّ غير قاطعٍ.

وللتعارض بين السنة والعقل -حسب زعمهم- أشكال، فقد يكون التعارض بين السنة والمسلمات العقلية أو ما يطلق عليه بدائه العقول، وقد يكون التعارض بين السنة والواقع المشاهد، وقد يكون التعارض بين السنة والعلم الحديث، وقد يكون التعارض بين السنة والمصلحة، وقد يكون التعارض بين السنة والتاريخ، وهم يرون أنها جميعاً تقدم على السنة حين التعارض.

وسنوضح فيما يأتي موقف العقلانيين وعلماء المسلمين من هذه التعارضات.

أولاً: عرض السنة على بدائه العقول

يدعي العقلانيون أن السنة حوت أحاديث تعارض بدائه العقول، كالأحاديث التي تتحدث عن شق صدره صلى الله عليه وسلم وإخراج حظ الشيطان منه، وأنه نبع الماء من بين أصابعه، وأن الطعام القليل الذي لا يكفي بضعة أفراد أطعمه النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً فكفاهم، وأن جذعاً يابساً أصدر صوتاً عندما بني للنبي صلى الله عليه وسلم منبر رقى عليه وترك ذلك الجذع، وأن الحيوانات العجماوات كن يكلمن النبي صلى الله عليه وسلم فيفهم عليهن ويرد عليهن، وغير ذلك من الأمور التي تخالف المسلمات العقلية، وإيرادها في كتب السنة دليلُ تزويرها؛ لأن الرسول بشرٌ، والبشر ليس بمقدوره إلا ما هو ضمن القدرة البشرية، وهذا المعنى أيدته الآيات الكريمة، قال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 57]، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه ليس بمقدوره الإتيان بما يطلبه منه الكافرون، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 109]، وبهذا يظهر أنه ليس بمقدور رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بخوارق العادات، وإنما مَرَدُّ ذلك إلى الحق سبحانه وتعالى[3].

وهذا يطعن في منهج المحدثين الذي سمح بوجود هذه المستحيلات العقلية في كتب السنة، لأن منهجهم يقوم على الطعن في السند، و"الاعتراض على السند الضعيف قد يفضي في الوقت ذاته إلى الطعن في المتن المختل، لكن وجود السند القوي لا يبعث على رفض مثل هذا الأخير. وعليه غالباً ما تكون الروايات المختلة المتن في الصحاح بعيدةً عن التحقيق والنقد، خلافاً لغيرها من الروايات التي ترد في الكتب الأخرى"[4].

ويمكن مناقشة هذه الدعوى وفق الآتي:

الأول: إن رد الحديث لمخالفته صريح العقول منهجٌ متَّبَعٌ عند المحدثين، وهو ما أشار إليه الإمام الشافعي بقوله: "ولا يُسْتَدَلُّ على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المُخْبِر وكذبه، إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يُسْتَدَلَّ على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله، أو ما يخالفه ما هو أثبت، وأكثر دلالاتٍ بالصدق منه"[5].

وقد نص الخطيب البغدادي على هذا أيضاً مع شيء من التمثيل والبيان، فقال وهو يتحدث عن أنواع الأخبار وسبل معرفة صحتها من عدمه: "وأما الضرب الثاني؛ وهو ما يعلم فساده، فالطريق إلى معرفته أن يكون مما تدفع العقول صحته بموضوعها، والأدلة المنصوصة فيها؛ نحو: الإخبار عن قدم الأجسام ونفي الصانع، وما أشبه ذلك"[6]. ويقول ابن الجوزي: "كل حديث رأيته يخالف المعقول، أو يناقض

3 انظر: محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط14، د. ت، 69-71.

4 يحيى محمد، مشكلة الحديث، د. ط، (د. د، د. ت)،93.

5 الشافعي، الرسالة، 399.

6 أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، د.ت)، 17.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأصول، فاعلم أنه موضوع فلا تتكلف اعتباره"[7].

وقد بيّن ابن حجر هذا فقال: "ومن القرائن التي يدرك بها الوضع ... ما يؤخذ من حال المروي؛ كأن يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل، حيث لا يقبل شيءٌ من ذلك التأويل"[8]، فبهذا الضابط (أن لا يَقْبَلَ الحديث المعارِضُ لصريح العقل التأويلَ) يرد الحديث دونما نظرٍ إلى سنده؛ لأن مخالفة العقل للبدهيات العقلية كافيةٌ في رد الحديث والحكم عليه بالوضع.

فهذا الأمر مما هو مستقر في منهج المحدثين وسائر علماء الإسلام، ولكن انظر إلى قول الشافعي: "أن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله"، ثم انظر إلى أمثلة الخطيب لما يعده مما لا يجوز أن يكون مثله: "الإخبار عن قدم الأجسام ونفي الصانع" لتعرف أن هذا النوع من الروايات هو ما يرد بالعقل من غير نظرٍ في سنده.

ثم انظر إلى قول ابن حجر: "صريح العقل" لتعرف أن معنى العقل ما يكون القطع به واضحاً لا يخضع لاختلاف وجهات النظر، وهو أساسيات التفكير الإنساني الموجودة في فطرة كل إنسان سليم الإدراك، وما يعتمد عليها، ويتفرع عنها تفرعاً واضحاً قوياً، ولا يمكن أن يكون معنى العقل هنا الاستدلالات النظرية الظنية، التي تحتمل اختلاف وجهات النظر مما يراه فلان حقاً، ويراه غيره باطلاً.

ولكن هذا يقودنا إلى أن نتساءل: ما هي البدهيات العقلية التي كانت مخالفتها وحدها كافية في رد حديث دون نظر في سنده؟ هذا ما سيوضحه الأمر الثاني.

الأمر الثاني: يقسم علماء المنطق الأشياء إلى ثلاثة أقسام؛ هي: واجب الوجود، ومستحيل الوجود، وممكن الوجود:

فواجب الوجود: هو الله سبحانه وتعالى وحده، إذ لولاه لكانت هذه الموجودات كلها عدماً، وحيث إنها موجودةً بحكم الحس والعقل كان وجوده واجباً، فلا يقبل أي حديث ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخالف هذه الحقيقة العقلية القاطعة،

---

7 عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، الموضوعات، ط1، (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، 1386هـ، 1966م)، 1: 106.

8 أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق: نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق، ط2، 1993م،90.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومتى رأينا حديثاً يخالف ذلك رددناه دون نظرٍ في سنده.

ومن أمثلة ذلك ما رواه بعض الوضاعين ونسبه كذباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل: "يا رسول الله ممّ ربنا؟ قال: من ماء مرور، لا من أرض ولا سماء، خلق خيلاً فأجراها، فعرقت، فخلق نفسه من ذلك العرق"[9]، فمثل هذا يحكم العلماء ببطلانه قبل النظر في إسناده؛ لمخالفته إثبات واجب الوجود سبحانه، وهذه واحدة من مخالفات صريح العقل.

أما *مستحيل الوجود عقلاً*، وهو الذي يمتنع في العقلِ وُجودُهُ على الإِطلاق، فلا يَصِحُّ عقلاً أنْ يُوجَد إِطلاقاً؛ وذلك كوجود الولد قبل أبيه، وكون الكل أصغر من الجزء، وكون الاثنين نصف الواحد، واجتماع النقيضين أو ارتفاعهما عن المحل كالموت والحياة، والوجود والعدم، فالعقل يحكم باستحالة كل هذه الأمور.

ومثال ذلك ما روي منسوباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً، وصلت عند المقام"[10]، ووجه التناقض فيه أن مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن موجوداً أيام نوح عليه السلام، فالذي يروي هذا كالذي يروي (أن الابن والد لأبيه)، ولذا قال العلماء: حديث السفينة هذا موضوع، رغم أنه ليس فيه إلا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال الساجي: منكر الحديث، وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً، فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح، وقال ابن الجوزي: أجمعوا على ضعفه، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة[11]، فالراوي ضعيف أو شديد الضعف، وكلاهما لا يقتضي أن يكون حديثه موضوعاً . إذا اقتصرنا على النظر في إسناده .وغاية ما يمكن هو أن يقال عن روايته التي يتفرد بها: إنها واهية.

وهذا النوع -أعني ما يُثْبِت أمراً مستحيلاً عقلاً- كما يقول أحد علماء الحديث المعاصرين "معدوم في روايات الثقات، إنما يوجد ما تتفق العقول على بطلانه في رواية

9 ابن الجوزي، الموضوعات، 1: 105.

10 ابن الجوزي، الموضوعات، 1: 107.

11 انظر: علي بن محمد بن عراق الكناني، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1399هـ، 1: 250.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكذابين الذين حدثوا بالمستحيل. ولا وجه لافتراضه أصلاً في روايات الثقات حيث كان الواقع ينفيه. وإنما يوجد في بعض الحديث ما لم تستوعب بعض العقول فهمه، تارة للجهل، وتارة للهوى والبدعة وبُغض السنن. ووقع مثل ذلك عن طوائف من الناس ردوا بمحض العقول نصوصاً تتصل بالغيب، كبعض نصوص الصفات واليوم الآخر، مما لم تنفرد به السنن الصحيحة، وإنما له في القرآن نظائر، وهذا مما لا يجوز أن يكون العقل فيه حاكماً على النص. وربما وقع من بعض العلماء استشكال معنى حديث صحيح، يحسبه أحدهم أتى على خلاف العقل في ظاهره، فيجتهد في تأويله لا في تعليله، وهذا وإن كان مما ينظر في أفراده وأمثلته، لكنه أقوم طريقاً من طريق من يسارع لرد الحديث وتعليله دون العمل على حمله على أحسن وجوهه"[12].

أما *ممكن الوجود*، فهو ما يجيز العقل وجوده، كأن تنقلب العصا حية تسعى، وأن يحيا الميت، وأن يُخْلَق ولدٌ من أم دون أب، كما يجيز عدمه، فهو من الجائز عقلاً وإن كان من المستحيل عادة، لأنه لا ينطوي على المتناقضات، لكن سنن الكون الإلهية والقوانين الطبيعية، التي نظم الله عز وجل بها الكون تمنع من وجوده.

فهذا لو جاء حديث يخالفه لا نرده اعتماداً على العقل وحده، وذلك لأن القوانين الطبيعية لا تتحكم في قدرة الله عز وجل، كما إذا جاء حديث يخبرنا أن الله عز وجل خلق شيئاً من الأشياء المستحيلة عادة، كخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وخلق حواء من رجل بلا امرأة، فلا يقال: إن هذا مخالف للعقل، وكذا لو جاء مِثْلُ ذلك عمَّن أيَّدَهُ الله، كما كان سيّدنا عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأمراض المستعصية، دون دواء أو أيِّ وسيلة أخرى، فهو من صنع الله عز وجل من حيث الحقيقة، وكما جاء صاحب سيّدنا سليمان بعرش مَلِكة سبأ بطرفة عينٍ بما أعطاه الله من علم الكتاب، وهذا أيضاً من صنع الله عز وجل من حيث الحقيقة، فيقبل ما جاء من الأحاديث من ذلك، وإن كان مستحيلاً عادةً وطبيعةً، إذا صح سنده وسَلِمَ من العلل.

الأمر الثالث: المعجزات

وتصديقاً لدعواه، بحيث يَعْجَزُ المخالِف والمعارِض عن الإتيان بمثلها.

---

12 عبد الله بن يوسف الجديع، تحرير علوم الحديث، مؤسسة الريان، بيروت، ط3، 1428هـ/2007م، 2: 708.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من هذه المعجزات، نذكر منها:

1. عصا سيّدنا موسى عليه السلام التي أجرى الله بها ثلاث معجزاتٍ، وهي:

أ. انقلابها حيةً تسعى، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: 10]، وقال: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 20].

ب. فَلْقُ البحر إلى اثني عشر طريقاً، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63].

ج. شَقُّ الصخر ونَبْعُ الماء منها، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60].

2. معجزة سيّدنا إبراهيم عليه السلام، إذ لم تحرقه النار، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69.68].

3. معجزات سيّدنا عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 110].

4. معجزات سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها شق القمر، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 21].

5. العقاب الذي أحله الله بأقوام بعض الرسل، فقد عذَّب الله مكذبي الرسل بأنواعٍ من العذاب التي ليست بمقدور البشر، وهي غير سائرةٍ في مسيرة الأسباب والمُسَبِّبات، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود: 67]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود: 82].

إذاً؛ فخرق العوائد للأنبياء سنةٌ لله ماضيةٌ.

وقد أتى العقلانيون بأدلة من القرآن تنفي أن يأتي النبي بمعجزة، كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 57]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 109]، وظاهرها يُشْعِرُ بنفي المعجزات، ولكن الحق أنْ ليس المراد منها نَفْيُ المعجزات؛ فالآية الأولى تُبَيِّن أن ليس بيد الرسول إنزال العذاب على الكافرين، ولذلك عقّب بقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58][13]. أما الآية الثانية: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 109] فهي بيانٌ لحقيقة الأمر، وهي أن أمر المعجزات منوطٌ بإرادة الله وقدرته، وليس للنبي من ذلك شيءٌ، فهي تَحْدُثُ بمشيئة الله لا بفعل الرسول[14]. ثم إن الآية واردةٌ في معرض الإنكار على الكافرين الذين تعنتوا فطلبوا كثيراً من المعجزات، لا ليستفيدوا ويهتدوا، وإنما ليعاندوا ويجحدوا، لذلك قال تعال في الآية التي تلي هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51].

وخلاصة الأمر: أن موافقة الحديث للعقل شرطٌ لابد منه، لكن على التفسير الصحيح الذي تقدم بيانه لكلمة (العقل)، لا على المعنى المضطرب الذي يفهمه من يردون الأحاديث الثابتة بدعوى مخالفة العقل دون تأمل وتدبر، فالحديث الذي يُرَدُّ لمخالفته العقل هو الحديث الذي يأتي بمستحيلٍ عقليٍّ أو ينفي واجباً عقلياً، أما ما يدور في فلك الجواز فالعقل قاصرٌ عن الحكم عليه قبولاً أو ردّاً.

وكذلك يقال أيضاً: إن اشتراط موافقة الحديث للعقل الصريح ليس تحكيماً للعقل البشري غير المعصوم في الوحي المعصوم، وإنما هو اعتماد على العقل القاطع الواضح، الذي بني عليه الدين كله؛ أصوله، وفروعه في التوثق من نسبة الحديث إلى رسول الله مصدر تلقي الوحي صلى الله عليه وسلم.

---

13 انظر: محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ/1964م، 6: 439.

14 انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 7: 64.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانياً: عرض السنة على الو اقع المشاهد

يدعي العقلانيون أن السنة حوت أحاديث تصادم الواقع المشاهد، وهذا يجعلها في زمرة الأحاديث المردودة، فالواقع يقيني وتلك أحاديث آحاد ظنية، فلا محيد عن تقديم القطعي على الظني، وهذا يقود إلى ضرورة عرض الحديث على الواقع، فكل حديث خالفه ردَّ، يقول أحدهم: "إن صحة الإسناد المستفاد من عدالة الرواة وضبطهم لا قيمة له بالنسبة لخبر لا يطابق الواقع؛ إما لأنه في ذاته غير ممكن، وإما لثبوت عكسه في التاريخ ثبوتاً قطعياً"[15]. ولم يكتفوا بعرض الحديث على الواقع المعاش، بل ردوا أحاديث لمخالفتها واقعاً سيكون، بزعم أن الواقع في المستقبل لن يكون وفق ما تنطق به الأحاديث، "فقد تكلمت أحاديث الفتن عن نبوءات تقع في آخر الزمن، بلغة تنتمي إلى مفردات القرن الهجري الأول، فالحرب ستقع مع (الروم)، وبجيش ينزل من (المدينة)، وأما أدوات القتال فهي السيوف والخيول والرماح، وأما غنائم الحرب فسوف يتم اقتسامها في الميدان ..."[16]، الأمر الذي قاد إلى وصف كتاب الفتن في صحيح مسلم بأن متونه ذات طابع مثيولوجي (أسطوري) فج، لاسيما تلك التي ثبت خلافها في وقائع التاريخ ثبوتاً قطعياً[17].

كما يدعون أن عدم اتباع المحدثين لهذا المنهج قادهم إلى تخبط في التعامل مع النصوص، "فمثلاً يضطر العلماء أحياناً إلى تأويل الحديث قوي السند عندما لا يتفق ظاهره مع الواقع، كالحديث الوارد في صحيح مسلم: «لا تأتي مائة سنةٍ وعلى الأرض نفسٌ منفوسةٌ اليوم»[18]، لكنهم يفعلون العكس فيما لو كان الحديث ضعيف السند، إذ يبادرون إلى تكذيبه . دون تأويله . مثل الحديث القائل: "لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة"[19]. فمع أن هذا الحديث يتفق ظاهره مع الحديث الوارد في صحيح مسلم، إلا أنه مُكَذَّبٌ هنا، ومؤولٌ هناك، فقد قيل: إن الحديث الأخير مخالف للواقع

15 عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط2، 2000، 310.

16 ياسين، السلطة في الإسلام، 309.

17 انظر: ياسين، السلطة في الإسلام، 309.

18 مسلم بن الحجاج، الصحيح، د. ط، (بيروت: دار الجيل، د.ت)، في فضائل الصحابة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تأتي مائة سنة، وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم»، حديث رقم (2538).

19 ابن الجوزي، الموضوعات، 3: 192.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشاهد، فأكثر الأئمة وأشهرهم ذكراً هم ممن ولدوا بعد القرن الأول للهجرة"[20].

إذن، فقد آل الأمر إلى الطعن في المنهج وما نتج عنه من أحاديث.

كما أنكروا حديث: «إذا قُبِرَ الميّت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، والآخر النكير ... فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها مُعَذَّباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» [21].

فهذا الحديث يخالف الحس والواقع، فكم هي القبور التي فُتِحَت بعد أن دُفِنَ فيها أصحابها؛ مسلمين أو كافرين، فلم يُشاهِد فاتحوها جدران القبر قد التصقت ببعضها، ولا أضلاع الموتى قد تداخَلَتْ، كما أن القرآن يخلو من ذكر عذاب القبر، وهذا دليلٌ على أن هذا الحديث موضوعٌ.

ومن الدعاوى التي بنيت على ذلك الأساس رفض الأحاديث الصحيحة، التي تذكر أن الدجال موجود في جزيرة بالبحر مكبلٌ بقيود الحديد. فقال بعض المثقفين: إن البعثات الكشفية قد جالت العالم كله، وإن السفن الفضائية صورت الكرة الأرضية كلها فلم تعثر عليه، فهذا الحديث مردود.

ولا بد بداية من بيان أن المحدثين يراعون مطابقة الحديث للواقع في حكمهم على المتون، ولكنهم لا يجعلونه وحده دليلاً كافياً على الرد، بل هو من القرائن التي يعتمدونها، فقد جعلوا مخالفة الواقع المشاهد قرينة على الوضع، يقول أبو بكر بن الطيب: "إنَّ من جملةِ دلائلِ الوضعِ أنْ يكونَ مخالفاً لقضيةِ العقلِ، بحيثُ لا يقبلُ التأويلَ، ويلتحقُ بهِ: ما يدفعهُ الحسُّ والمشاهدةُ"[22].

ومن أمثلة ذلك: قيل لسُهَيْل بن ذكوان: صف لنا عائشة، فقال: "كانت أَدْمَاء"[23]. والمعروف أن عائشة كانت شقراء بيضاء. قال عباد بن العوام: كنا نتهمه بالكذب –أي

20 محمد، مشكلة الحديث، 93.

21 محمد بن عيسى الترمذي، الجامع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت، في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم (1071)، وحسنه.

22 عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، دار الكلم الطيب، دمشق ط3، 1417هـ، 1: 325.

23 أحمد بن محمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، بيروت: المكتب الإسلامي ط1، 1408هـ/1988م، 1: 442.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سهيلاً[24]. بل إن يحيى بن معين كذبه لأنه زعم أن عائشة سوداء[25].

ومن ذلك أيضاً: ما زعمه سعيد بن ذي لَعْوَة أنه رأى عمر بن الخطاب يشرب المسكر. قال ابن حبان: "وكيف يشرب عمر بن الخطاب رحمه الله المسكر وهو الذي خطب الناس بالمدينة وقال في خطبته: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: الخمر من خمسة أشياء، والخمر ما خامر العقل، ولم يكن عمر ممن كان يشربها في أول الإسلام، حيث كان شُرْبُها حلالاً، بل حَرَّمَها على نفسه وقال: لا أشرب شيئاً يُذْهِب عقلي"[26].

انظر كيف رد المحدثون حديث هؤلاء الرواة لما رووا ما يخالف الواقع المستقر، فأوصاف عائشة معروفة، بل كانت تلقب بالحميراء، واجتناب عمر للخمر في الجاهلية فضلاً عن الإسلام مشتهرٌ، فرواية ما يخالفه رواية تخالف الواقع، ولذلك ردت دونما نظر إلى سند.

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن اعتماد الواقع المعاش وحده معياراً لقبول الأحاديث وردها غير سديد، ذلك أن إحاطة الإنسان بالموجودات من حوله إحاطة ناقصة، فالإنسان محجوبٌ عن كثير من الأمور الموجودة على الكوكب الأرضي فضلاً عن احتجابه عما هو خارج الكوكب، فكيف يمكن الاكتفاء بالواقع لرد حديث من يأتيه خبر السماء؟ لا شك أن مثل هذا مردود منطقاً وعقلاً قبل أن يكون مردود وفق قواعد المحدثين، ومن الأمثلة الواضحة على نقص إدراك الإنسان واحتجاب بعض الأشياء عنه:

1- الروح: فمع أن الروح هي قوام حياة المخلوقات، إلا أن كنهها مجهولٌ، ولا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:85]، فهل ننكر وجود الروح لأن

24 ابن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، 1: 442. وعلّق الدارقطني على القصة فقال: "فبان كذبه" أي لأجل هذه الرواية. انظر: علي بن عمر الدارقطني، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، دار طيبة، الرياض، ط1، 1405هـ/1985م، 15: 301.

25 انظر: أحمد بن علي بن حجر، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، ط3، 1406هـ/1986م، 3: 124.

26 محمد بن حبان، كتاب المجروحين، دار المعرفة، بيروت، د. ط، 1412هـ/1992م، 1: 316.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشريح جسد الإنسان لم يثبت وجودها؟ فهي واقع لكنه غير مشاهد، فهل هي ضرب من الخيال؟

2- الجن: فهم يعيشون بين أظهرنا، وتتراءى لنا بعض آثارهم أحياناً، ولكنا لا ننكر وجودهم لأننا لا نتمكن من رؤيتهم أو تلمس آثارهم، قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} [الجن:1]. فهم واقعٌ، وهم يتشاركون معنا الأرض نفسها، ولكننا لا نراهم، فهل ننكر وجودهم بزعم مخالفة ذلك للواقع المشاهد؟

كما أن اعتماد الواقع معياراً للقبول والرد يتناقض مع العقل، لأن العقل يجيز وقوع هذه الأشياء، فكيف نردها بزعم مخالفتها الواقع والعقلُ يقبلها؟ فهذا تناقض في الأدلة العقلية ذاتها، ولذلك لا يمكن الاعتماد على الواقع دليلاً على رد الأحاديث.

ولاستكمال الجواب على هذا كلام الطاعنين لا بد من تفصيل القول في الأمثلة التي زعموا مخالفتها للواقع، وبقياس ما لم يفصل القول فيه على ما فصل فيه القول يستكمل الرد.

المثال الأول: حديث عذاب القبر ونعيمه:

إن ما يحصل في القبر من عذابٍ لكافرٍ أو نعيمٍ يُنَعَّم به المؤمن لا مجال لرؤيته بأبصارنا؛ لأنه من الغيب المحجوب عنا، ولا سبيل لمعرفته إلا عن طريق الخبر الصادق، ونحن لو عمدنا إلى أمثال هذا الحديث فأنكرناه فكيف بنا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 51.50]، فالله سبحانه وتعالى يخبر أن الملائكة حال قَبْض أرواح الكفار تنيلهم عذاباً شديداً، فهم يضربون وجوههم وأدبارهم، وينذرونهم بالنار التي أعدها الله لهم، فهل رأى أحدٌ كافراً يُضْرَبُ؟ وهل سَمِعَ أحدٌ قول الملائكة ونَذارَتَهم له بالنار؟.

إن إنكار هذه الآية انطلاقاً من قياس الغائب بالشاهد. أولى؛ لأنها لا تتحدث عما يحدث داخل قبرٍ لا نعلم ما يحصل فيه؛ لأن التراب يَحْجُب بيننا وبين رؤية ما يحدث فيه، بل تتحدث هذه الآية عن فعل الملائكة لحظة نَزْعِ روح الكافر. فهل يملكون الجرأة على رَدّ الآية بمثل هذه الحجة الضعيفة؟! فكذلك الحديث لا يملكون رده بمثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الحجة الضعيفة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه شيئاً عن حال الكافر في قبره، يقول تعالى في شأن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]، ومن الظاهر أن العرض على النار بالغداة والعشيّ قبل يوم القيامة، وهي لابد في القبر، فلو فتحنا قبراً من قبور أحد الفراعنة وراقبناه صبح مساء أَكنّا سنشاهده يُعذب، أم أنّا سنُحجب عن ذلك؟ فهل نردُّ الآية لمخالفتها الواقع المشاهد؟

المثال الثاني: ‹‹لا تأتي مائة سنةٍ وعلى الأرض نفسٌ منفوسةٌ اليوم››.

ووجه المعارضة -كما يزعمون- أن الحديث يزعم انتهاء الحياة على الكرة الأرضية بعد مضي مئة سنة من تاريخ التحديث بهذا الحديث، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا الحديث قبل وفاته بشهر[27]. وعليه فإن سنة 110 من الهجرة النبوية ستكون نهاية العالم، وهذا ما لم يحصُل، فالحديث -بزعمهم - باطلٌ.

والحقيقة أن هذا الذي ينطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم صحيحٌ بلا شك، ولكن ما فهمه أولئك القوم من هذا الحديث غير صحيح، فالحديث لا يتحدث عن انتهاء الحياة البشرية على وجه الأرض، حتى يقال إنه يخالف الواقع، بل الحديث يتحدث عن البشر الذين كانوا يعيشون على الأرض زمن حياته صلى الله عليه وسلم أن أي واحدٍ منهم لن يمتد به العمر إلى ما بعد سنة 110 للهجرة. أما من ولد بعد قوله صلى الله عليه وسلم فلا يشمله الحديث أصلاً.

وانظر إلى هذه الرواية التي رواها مسلم: «أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»، فالنص واضح أن الحديث عن "ممن هو على ظهر الأرض"، ولذلك قال ابن عمر: "يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن"[28].

---

27 مسلم، الصحيح، في فضائل الصحابة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تأتي مائة سنة، وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم»، حديث رقم (2538).

28 مسلم، في فضائل الصحابة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تأتي مائة سنة، وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم»، حديث رقم (2538).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد استند العلماء على هذا الحديث لتحديد الزمن الذي يبطل فيه ادعاء الصحبة، وهو سنة 110 للهجرة، فمن ادعى صحبة النبي صلى الله عليه وسلم بعد سنة 110 فهو كاذب لا ريب، حيث جعلوا من شروط الصحبة: "المعاصرة، فيعتبر بمضي مائة سنة وعشر سنين من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم"، يقول السخاوي تعليقاً على هذا الحديث: "ولهذه النكتة لم يصدق الأئمة أحداً ادعى الصحبة بعد الغاية المذكورة. وقد ادعاها جماعة فكذبوا، وكان آخرهم رتن الهندي؛ لأن الظاهر كذبهم في دعواهم"[29].

أما زعم أن هذا الحديث الذي قبله العلماء مثل حديث: ‹‹لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة›› فهو زعم غريب، وكأن القائل لا يعرف الفروق بين كلام العرب، فالفرق واضح بين حديث يقول إن سكان الأرض الآن سيموتون جميعاً، ولن يبقى منهم أحد على قيد الحياة بعد مئة سنة، وبين حديث يزعم أن كل من يولد بعد المائة فليس لله به حاجة. فالأول يتحدث عن عصرٍ محدد، والثاني يتحدث عن كل العصور. ولذلك كان الحديث الأول مقبولاً والثاني مردوداً، وما تضمنه الحديث الأول من معنى موافق للواقع بخلاف الثاني الذي يكذبه الواقع.

المثال الثالث: روى مسلم في صحيحه من حديث فاطمة بنت قيس قالت: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه ركب البحر فتاهت به سفينته، فسقط إلى جزيرة، وفيه ذكر الدجال وأنه أعظم إنسان رأيناه قط خَلْقاً، وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد[30].

والحق يقال إن جهلنا لا يمكن أن يكون دليلاً على خطأ الحديث، فعدم العلم بالشيء ليس علماً بضده، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، لاسيما والحديث يصف جزيرة نائية، فهل اكتشفت كل الجزر على سطح هذه البسيطة؟ أولا نسمع بين الفينة والأخرى عن اكتشاف قبيلة في الأمازون وأخرى من الهنود الحمر وأخرى في

---

29 محمد بن عبد الرحمن السخاوي، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1403هـ، 4: 92.

30 مسلم، الصحيح، في الفتن، باب الجساسة، حديث رقم (2942).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدغال أفريقيا؟ إن ادعاء أن العالم بأسره قد تم مسحه واكتشافه ادعاء يفتقر إلى الدليل، ولا أدل على ذلك من استمرار رحلات البحث العلمي، فلو تم اكتشاف كل شيء لما دعت الحاجة إلى هذه الرحلات.

المثال الرابع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيشٌ من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطلٌ، فإذا جاؤوا الشأم خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فأمهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[31].

فهنا اعتراضان اعترض بهما على هذا الحديث:

الأول: استخدام مفردات القرن الهجري الأول للتعبير عن نبوءات آخر الزمن.

والثاني: أن الحديث حوى بعض الأخطاء التاريخية[32].

أما الأول: فإن من أساليب البلاغة أن تخاطب الجماهير بما يعقلون، وهذا القرآن الكريم يستخدم ذات المفردات، أفيكون هذا دليل اختلاق؟ اللهم لا، يقول تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8]، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14]، فهل متاع الدنيا المعاصرة مقصور على هذه الأشياء التي كانت كنزاً في زمن الرسالة، ولكنها اليوم غير ذات قيمة، وهل نعيب على القرآن استخدام مفردات القرن الهجري الأول؟

---

31 مسلم، الصحيح، في الفتن، باب فتح القسطنطينية، حديث رقم (2897).

32 انظر: ياسين، السلطة في الإسلام، 310.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم تحدث بمفردات غير معروفة في زمنه لخرج خطابه عن أن يكون بيناً فصلاً إلى أن يكون مبهماً غامضاً، وهذا ليس من البلاغة في شيء.

وهذه المفردات المستخدمة في الحديث إنما هي رموز وإشارات تدل على كل ما يشبهها من متطورات العصر، فالسيف قد يكون بندقية، والخيل قد تكون دبابة، المهم أن كلاً منها سلاح من أسلحة الحرب، وبالتالي فإن الاعتراض على الحديث بهذه الدعوى اعتراض غير سليم، وليس له من البلاغة وجه، بل ضده هو الثابت المتوافق مع مقتضيات البلاغة والتبيان.

وأما الثاني: فالحديث يتحدث عن أحداث آخر الزمان، ومنها فتح القسطنطينية، وأن من سيفتحها جيش يخرج من المدينة، وليس بالضرورة أن لا تكون قد فتحت من قبل، فكم هي المدن التي فتحت ثم استولى عليها الكفار؟ فأين دليل الواقع الشاهد بأن الحديث تضمن خطأ تاريخياً؟

على أن بعض الباحثين يرى أن المقصود بالقسطنطينية ليست مدينة إسطنبول التركية العامرة بالإسلام اليوم، وإنما هي القسطنطينية الغربية، أي روما مدينة الفاتيكان الآن، وهي حاضرة العالم المسيحي اليوم[33]، وهي لم تفتتح حتى الآن، وبشارة النبي صلى الله عليه وسلم بفتحها ثابتة، وأنها ستكون آخر المدينتين فتحاً، فعندما سئل أي المدينتين تفتح أولاً أجاب صلى الله عليه وسلم: "بل مدينة هرقل أولاً تفتح"[34].

ويدل على ذلك أن مدينة عمورية يطلق عليها قسطنطينية الصغرى[35]، وإسطنبول هي القسطنطينية العظمى[36].

ويؤيد هذا أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم تحدث عن فتح مدينة لم يسمها، وإنما ذكر أوصافها، فقال: «سمعتم بمدينة جانبٌ منها في البر وجانب منها في البحر؟»

33 انظر: د. فتحي نعينع، القسطنطينية التي تفتح آخر الزمان، (مقال منشور على جريدة الشعب :http //www.elshaab.org).

34 عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المصنف، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409 هـ، 4: 219.

35 انظر: أحمد بن داود الدينوري، الأخبار الطوال، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1960م)، 402.

36 انظر: محمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، 1: 17.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالوا: نعم، يا رسول الله قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاحٍ، ولم يرموا بسهمٍ، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها. قال ثور: لا أعلمه إلا قال. الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغانم، إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»[37].

وروى الترمذي حديث: «فتح القسطنطينية مع قيام الساعة»[38]، ثم علَّق قائلاً: "والقسطنطينية هي مدينة الروم، تفتح عند خروج الدجال، والقسطنطينية قد فتحت في زمان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم".

وسواء أقلنا إن القسطنطينية التي يتحدث عنها الحديث لم تفتح بعد، وهي روما، أو قلنا إن القسطنطينية هي إسطنبول اليوم، ولكن متغيرات الزمان لا يعلمها إلا الله تعالى، فقد تتغير الأمور، فيؤول حكمها إلى غير المسلمين، فيفتحها المسلمون آخر الزمان مرة أخرى، بأي التفسيرين قلنا فإن الحديث لا يعارض الواقع أبداً، وما قول من قال ذلك إلا رجم بالغيب.

وبهذا يظهر أن رد الحديث لمجرد ادعاء مخالفته الواقع المشاهد غير سديد، فلا المخالفة ثابتة في كثير من الدعاوى، ولا إحاطة الإنسان بهذا الواقع حاصلة، وليست مخالفته وحدها كافية في رد الأخبار، لجواز وقوع المعجزات وخوارق العادات.

ثالثاً: عرض السنة على العلم الحديث

وجد العقلانيون في ظواهر بعض الأحاديث التي يظهر منها تعارض مع نظريات العلم الحديث ضالتهم، فزعموا أن السنة بحاجة إلى إعادة نقد بعرضها على العلم الحديث، فإن خالفته كان هذا دليلاً على زيفها وإن وافقته فهي السنة المقبولة، وهكذا أضحى العلم الحديث حاكماً على السنة، له عليها كلمة الفصل.

ومع أن كثيراً مما يُزْعَم أنه عِلمٌ إنما هو نظريات ما زالت في مرحلة الإثبات، وهي قابلة للأخذ والرد، وكثير من العلماء المختصين غير المسلمين يردونها ويرون بطلانها،

---

37 مسلم، الصحيح، في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، حديث رقم (2920).

38 الترمذي، الجامع، في الفتن، باب ما جاء في خروج الدجال، حديث رقم (2239).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا أن العقلانيين يصرون على أن مخالفتها يطعن في السنة ومنهج المحدثين.

والحق أن مخالفة خبرٍ ما لحقيقة علمية ثابتةٍ ثبتت بالبراهين اليقينية سببٌ مقنع لرده، أما النظريات التي ما زالت في خانة الفرضيات التي تقبل الإثبات وضده فأقل من ذلك بكثير.

وحتى يخرج كلامنا عن دائرة الإجمال لا بد من ذكر بعض الأمثلة التفصيلية التي عرضوا فيها السنة على العلم فبانت معارضتها:

المثال الأول: أحاديث الطب النبوي: وردت بعض الأحاديث التي يصف فيها النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأدوية لبعض الأمراض التي كانت معروفة في زمنهم، أو ينهى عن بعض الأطعمة التي قد تسبب مرضاً ما، أو يأمر ببعض الأطعمة التي تقي من بعض الأمراض، ومن ذلك:

1. قوله صلى الله عليه وسلم: «من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر»[39].

2. قوله صلى الله عليه وسلم: «شفاء عرق النسا، ألية شاة أعرابية تذاب، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق، في كل يوم جزء»[40].

فهذه الأحاديث ظاهرة التعارض مع العلم الحديث، فمتى كان تناول سبع تمرات صباحاً واقياً من السم؟ ومتى كانت ألية شاة أعرابية دواء لمرض عرق النسا؟

وللجواب عن هذا لا بد من أن نقر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُعْرَف بكون طبيباً بين العرب، ولا جاءت رسالته بتعاليم طبية، كما أن أحداً من العلماء المعتبرين لم يقل أن ما جاء به من أوامر طبية إنما هي على إطلاقها وعمومها، بل ما زال العلماء يرددون أنها علاجات نابعة من بيئتها وخاضعة لظروف الزمان والمكان[41].

ومن هنا ينبه ابن القيم -وهو المهتم بالطب النبوي- إلى أن هذه الأوامر والإرشادات ليست عامة لكل الناس في كل العصور والبيئات، بل هي مخصوصة بنفس البيئة التي

---

39 محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407هـ/1987م، في الأطعمة، باب العجوة، حديث رقم (5130)، ومسلم، الصحيح، في الأشربة، باب فضل تمر المدينة، حديث رقم (2047).

40 محمد بن يزيد بن ماجه، السنن، دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت، في الطب، باب دواء عرق النسا، حديث رقم (3463).

41 انظر: د. يوسف القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2002م، 68.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قيلت فيها. فيقول . مثلاً. عن دواء عرق النسا: "هذا خطاب للعرب، وأهل الحجاز ومن جاورهم ولا سيما أعراب البوادي، فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم، فإن هذا المرض يحدث من يبس، وقد يحدث من مادة غليظةٍ لزجةٍ، فعلاجها بالإسهال، والألية فيها الخاصيتان: الإنضاج، والتليين؛ ففيها الإنضاج والإخراج. وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين، وفي تعيين الشاة الأعرابية لقلة فضولها وصغر مقدارها ولطف جوهرها، وخاصية مرعاها؛ لأنها ترعى أعشاب البر الحارة كالشيح، والقيصوم، ونحوهما، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان صار في لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تغذيه بها، ويكسبها مزاجا ألطف منها، ولا سيما الألية، وظهور فعل هذه النباتات في اللبن أقوى منه في اللحم، ولكن الخاصية التي في الألية من الإنضاج والتليين لا توجد في اللبن، وهذا كما تقدم أن أدوية غالب الأمم والبوادي هي الأدوية المفردة، وعليه أطباء الهند.... وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهل البوادي الأمراض البسيطة، فالأدوية البسيطة تناسبها، وهذا لبساطة أغذيتهم في الغالب. وأما الأمراض المركبة فغالباً ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها، فاختيرت لها الأدوية المركبة"[42].

وكذلك الحال في أكل التمرات السبع صباحاً، يقول ابن القيم: "وهذا الحديث من الخطاب الذي أريد به الخاص، كأهل المدينة ومن جاورهم ... ويجوز نفع التمر المذكور في بعض السموم، فيكون الحديث من العام المخصوص، ويجوز نفعه لخاصية تلك البلد، وتلك التربة الخاصة من كل سم"[43].

والذي يمكن أن نخلص إليه: أن هذا الأحاديث الصحيحة التي لا مجال لردها والطعن فيها قيلت في أزمنةٍ خاصةٍ وبيئةٍ خاصةٍ، وهي صادقةٌ بلا شك في وقتها، وهي من خير العلاج في بيئتها، أما صلاحيتها في كل زمانٍ ومكانٍ فهو ما لم يدعه أحدٌ، على أن الانتفاع بهذه الأدوية يحتاج تسليماً بنجاعتها، فـ"شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله واعتقاد النفع به، فتقبله الطبيعة فتستعين به على دفع العلة، حتى إن كثيراً من

---

42 محمد بن أبي بكر بن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27، 1415هـ/1994م، 4: 66-67.

43 ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، 4: 90-92.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعالجات ينفع بالاعتقاد، وحسن القبول وكمال التلقي، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب، وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له، وتفرح النفس به، فتنتعش القوة ويقوى سلطان الطبيعة، وينبعث الحار الغريزي، فيساعد على دفع المؤذي، وبالعكس يكون كثير من الأدوية نافعا لتلك العلة، فيقطع عمله سوء اعتقاد العليل فيه، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول، فلا يجدي عليها شيئاً"[44].

3. قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه شفاء، وفي الآخر داء»[45]. فقالوا: إن العلم أثبت أن الذباب ناقل للأمراض، وهو من أهم أسباب انتشارها، فكيف يؤمر بغمسه في الإناء قبل إخراجه؟[46].

وهذا الحديث أحد الأحاديث التي كثر الأخذ والرد حولها، وقد أجيب عن ذلك بأجوبة نظرية وتطبيقية.

فمن الأجوبة النظرية: ما قاله طبيب إحدى الجامعات: "لو لم يكن الذباب محصَّناً بمضادات تلك الجراثيم لماتت الذبابة بعلوق الجراثيم بها ولما بقي ذباب في العالم".

ومن الأجوبة التطبيقية ما لاحظه الأقدمون بالتجربة أن دلك موضع لدغ الزنبور أو العقرب بالذباب ينفع منه نفعاً بيناً.

ومن التطبيقات الحديثة: ما لوحظ على جرحى الحرب العالمية من الجنود أن جراحهم أسرع شفاءً والتئاماً من الضباط الذين يعنى بهم مزيد عناية في المستشفيات لأن الجنود يتداوون في الميدان فيتعرضون لوقوع الذباب على جراحاتهم.

ومنذ سنة 1922 نشر الدكتور ديريل بعد دراسة مسبقة لأسباب جائحات الهيضية (كوليرا) في الهند وجود كائنات دقيقة تغزو الجراثيم وتلتهمها وتدعى ملتهمات الجراثيم (بكتريوفاج) وأثبت ديريل أن البكتريوفاج هو العامل الأساسي في إطفاء جوائح (الكوليرا) وأنه يوجد في براز الناقهين من المرض المذكور، وأن الذباب ينقله من

---

44 ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، 4: 92.

45 البخاري، الصحيح، في الطب، باب إذا وقع الذباب، حديث رقم (5445).

46 انظر: ناصر العقل، الاتجاهات العقلانية الحديثة، دار الفضيلة، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م، 240.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البراز إلى آبار ماء الشرب، فيشربه الأهلون، وتبدأ جذوة جائحة الهيضة بالانطفاء.

وقد تمكن الأستاذ ديريل من تكثير ملتهم الجراثيم وتنميته والاستفادة منه في المعالجة، كما أنه تأكد من تأثيره في الجراثيم بإضافته إلى مزروعها، وملاحظة إذابته لها تماماً، ثم اكتشف منذ ذلك الحين حتى الآن عدد كبير من ملتهمات الجراثيم، كل منها يلتهم نوعاً معيناً أو عدة أنواعٍ من الجراثيم[47].

المثال الثاني: أحاديث تخالف الظواهر الكونية، ومن ذلك:

قوله صلى الله عليه وسلم: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لي بنَفَسَين؛ نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»48. وهذا يخالف ما هو معلوم من علم الجغرافيا، فالسبب الرئيسي لارتفاع الحرارة صيفاً هو ميلان محور دوران الأرض حول نفسها، ففي فصل الصيف يكون محورها مائلاً في اتجاه الشمس، وبالتالي يكون نصف الكرة الشمالي مواجهاً لها، فتسقط أشعتها بزاوية شبه عمودية، وتصل إلى الأرض مباشرةً، فتكون أشد حرارة. أما النصف الجنوبي فيكون مائلاً في الاتجاه المعاكس، وبالتالي يكون فصل الشتاء حيث تصل إليه أشعة الشمس مشتتةً ومتفرقةً، فتكون حرارتها أقل. ومع دوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس تتبدل الأدوار، فينعكس محوراها، وبالتالي تتبدل الفصول بين نصفيها. وهذا يقودنا إلى رد الحديث، لمخالفته هذه الحقيقة العلمية، إذ يعزو الحديث سبب الحرارة إلى انبعاثات منطلقة من جهنم.

وقد سلك العلماء في فهم هذا الحديث مسالك متعددة، منها:

أ. حَمْل الحديث على المجاز والتصوير الفني، الذي يصور شدة الحر على أنها نفَس من أنفاس جهنم، كما يصور الزمهرير على أنه نفَس آخر من أنفاسها، وجهنم تحوي من الحارة أشد أنواعها ومن الزمهرير كذلك[49].

ب. حمل الحديث على الحقيقة، يقول الخطابي: "إن شدة الحر في الصيف من

47 انظر: د. نور الدين عتر، السنة المطهرة والتحديات، العدد الثالث، (قطر: مجلة مركز بحوث السُنَّة والسيرة، 1408هـ/1988م)، 173.

48 البخاري، الصحيح، في بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم (3087)، ومسلم، الصحيح، في المساجد، باب استحباب الإبراد بالظهر، حديث رقم (617).

49 انظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع السنة، 158.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهج جهنم في الحقيقة[50].

ج. ومن العلماء من يرى أن الشمس إنما هي جزء من نار الآخرة، وبالتالي فإن الحر الصادر من الشمس إنما هو في الحقيقة صادرٌ من فيح جهنم، باعتبار أن الشمس ستؤول إلى جهنم يوم القيامة.

وأياً كان المعنى المقصود من الحديث، فإن دعوى معارضته للعلم الحديث دعوى غير صحيحة، ولا يثبتها العلم، فإن ما قيل فيها من تأويلات لا تخرج عن دائرة التأويلات المقبولة.

ولا بد من الإشارة إلى أن المحدثين لا يعارضون فكرة عرض السنة على العلم الحديث، ولكنهم يضعون ضابطين منطقيين لهذا العرض:

1. أن يكون الحديث ظنياً؛ إن في دلالته أو ثبوته، أما إن كان قطعي الدلالة والثبوت فهو مجزوم به، ولا يمكن أن يخالف قطعياً غيره.

2. أن تكون المعطيات العلمية اكتسبت صفة القطعية، أي أصبحت حقيقة علمية، كدوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، أو كروية الأرض، وما إلى ذلك، أما النظريات التي ما زالت في طور الإثبات فلا يمكن عدّها قطعية يعرض عليها الظني[51].

وهنا لا بد من النص على أن كثيراً من الحالات التي يظن أن تعارضاً حاصلاً بين العلم الحديث والسنة النبوية إنما هي حالات تابعة لما وصل إليه العلم وتطوره، فكثير من الأمور التي كانت ضرباً من المستحيل العادي أضحت في زمننا أمراً بسيطاً بدهياً، فلو حدثنا أهل القرن السابع الميلادي، وهو زمن البعثة والرسالة، أن الرجل يتحدث في طرف المعمورة فيرد عليه آخر من طرفها الآخر، بل ويرى صورته المتحركة، لرأوا أن لوثة من جنون قد أصابت عقولنا، فكيف إذا حدثناهم عن الطائرات والسيارات والأجهزة الإلكترونية، وسواها، فكيف بها وقد أصبحت جزءاً من حياتنا؟

لذلك فإن الأسلم في حالات التعارض الظاهرية بين العلم والحديث أن نتوقف عن رد الحديث، فنتهم فهمنا، ونكل علم ما لا نعلمه إلى الله تعالى، ولعل الله سبحانه

---

50 حمد بن محمد الخطابي، معالم السنن، المطبعة العلمية، حلب، ط1، 1351هـ/1932م، 2: 17.

51 انظر: د. الحارث فخري عيسى عبد الله، الحداثة وموقفها من السنة، دار السلام، القاهرة، ط1، 2013م، 294.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتعالى يعطي من يأتي بعدنا علماً وفهماً حرمناه، فيحلون ما عسر علينا فهمه.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث لا بد من التأكيد على ما يأتي:

1- يسلم المحدثون بضرورة ألا يعارض الحديث صريح العقول، وأن حديثاً بهذه الصفة مردود من دون النظر في سنده.

2- ولكنهم يؤكدون على أن التعارض الذي يرد معه الحديث هو التعارض الحقيقي؛ بأن يأتي الحديث بمستحيل عقلي، أما التعارض الناشئ من سوء الفهم أو عدم الإلف فلا يستلزم رد الحديث.

3- وفي هذا الصدد يجزم المحققين من أهل الحديث أنه لا وجود في كتب السنة المعتبرة لهذا النوع من الحديث، وإنما توجد في أحاديث الدجالين والزنادقة الذي يحاولون إلصاقها بالسنة تشويها أو ترويجاً لها.

4- يراعي المحدثون وجوب مطابقة الحديث للواقع في حكمهم على المتون، بل لقد جعلوا مخالفة الواقع المشاهد دليلاً على الوضع، بحيث جعلوا من جملةِ دلائلِ الوضعِ أنْ يكونَ مخالفاً لقضيةِ العقلِ، بحيثُ لا يقبلُ التأويلَ، ويلتحقُ بهِ: ما يدفعهُ الحسُّ والمشاهدةُ.

5- ولكنهم يؤكدون على ضرورة أن يكون الواقع مثبتاً بيقين، وأن يكون التعارض مستحكماً.

6- ويؤكدون أيضاً على أن الحديث لا يخالف العلم الحديث أو الظواهر الكونية، وما يبدو من مخالفة إنما جاء على سبيل المجاز والتشبيه أو على سبيل الحقيقة التي يقصر عنها علم البشر.

7- ويعيدون التأكيد في هذا المقام على شروط عرض الحديث على العلم بأن يكون العلم اكتسب درجة القطعية لا أنه لازال في طور النظريات.

8- غالب الطعون التي توجه لمنهج المحدثين ناشئة عن جهل بطبيعة عملهم أو تجاهل لها.

9- لا بد من إيلاء قضية إيضاح مناهج المحدثين في القبول والرد مزيد اهتمام، حتى لا يبقى لجاهل عذرٌ، ويظهر الجاهل من الحاقد المغرض المتجاهل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسال الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، ويقينا الزلل في الأقوال والأعمال، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادروالمراجع

القرآن الكريم.

1- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، المصنف، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409 هـ.

2- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، الموضوعات، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط1، 1386هـ، 1966م.

3- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27، 1415هـ/1994م.

4- ابن حبان، محمد، كتاب المجروحين، دار المعرفة، بيروت، د. ط، 1412هـ/1992م.

5- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق: نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق، ط2، 1993م.

6- ابن حجر، أحمد بن علي، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط3، 1406هـ/1986م.

7- ابن حنبل، أحمد بن محمد، العلل ومعرفة الرجال، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.

8- ابن عذاري المراكشي، محمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م.

9- ابن عراق الكناني، علي بن محمد، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1399هـ.

10- ابن ماجه، محمد بن يزيد، السنن، دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت.

11- البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407هـ/1987م.

12- الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.

13- الجديع، عبد الله بن يوسف، تحرير علوم الحديث، مؤسسة الريان، بيروت، ط3، 1428هـ/2007م.

14- الخطابي، حمد بن محمد، معالم السنن، المطبعة العلمية، حلب، ط1، 1351هـ/1932م.

15- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، بيروت، د. ط، د.ت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

16- الدارقطني، علي بن عمر، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، دار طيبة، الرياض، ط1، 1405هـ/1985م.
17- الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1960م.
18- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1403هـ.
19- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، دار الكلم الطيب، دمشق، ط3، 1417هـ.
20- الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، مكتبه الحلبي، مصر، ط1، 1358هـ/1940م.
21- عبد الله، د. الحارث فخري عيسى، الحداثة وموقفها من السنة، القاهرة، دار السلام، ط1، 2013م.
22- عتر، نور الدين، السنة المطهرة والتحديات، العدد الثالث، (قطر: مجلة مركز بحوث السُنَّة والسيرة، 1408هـ/1988م.
23- العقل، ناصر، الاتجاهات العقلانية الحديثة، بيروت، دار الفضيلة، ط1، 1422هـ/2001م.
24- القرضاوي، د. يوسف، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، القاهرة، دار الشروق، ط3، 2002م.
25- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ/1964م.
26- محمد، يحيى، مشكلة الحديث، د. ط، د. ط، د. ت.
27- مسلم بن الحجاج، الصحيح، دار الجيل، بيروت، د. ط، د.ت.
28- نعينع، د. فتحي، القسطنطينية التي تفتح آخر الزمان، (مقال منشور على جريدة الشعبhttp: //www.elshaab.org).
29- هيكل، محمد حسين، حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط14، د. ت.
30- ياسين، عبد الجواد، السلطة في الإسلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000.

Kaynakça

Abullah, elhâris fahrî. *El-hedase ve mevkifuhe min es-sünne*. baskı 1, Kahire: dârüs-selam, 2013.
Buhari, Muhammed b. İsmail. *Es-sahih*. baskı yok. beyrut: dâr ibn kesir, tarih yok.
Darakutni, Ali b. Ömer. *El-ilelul-vârida fi'l- ehâdîsi'n-nebeviyye*. baskı 1, riyad: dâr tayba, 1985.
Ed-Deynûri, Ahmed b. Davûd. *El-ehbarüt-tival*. baskı 1, mısır: dar ihyâül-kitab el-arabi, 1960.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

El-âkıl, nasır .*El-itticahatül-aklâniya el-hâdise*. baskı 1, Beyrut: darül-faziyle, 2001.
El-cüdey, Abdullah b. Yûsuf. *Tehrir-ülûmul-hâdis*. baskı 3, beyrut: müasseset-ürreyyan, 2007.
El-hatib, Ahmed b. Ali. *El-kîfâya fî ilmir-rivaye*. baskı yok, beyrut: el-mekebatül-ilmîye, tarih yok.
Es-sahavi, Muhammed b. Abdurrehman. baskı1, *Fethül-muğîs şerh elfîyetül-hadis*. beyrut: darül-Kutubil-ilmiye, 1403.
Es-suyûtî, Abdurrehman b. Abi bekir. *Tedrîbur-ravi fi şerh tekriybûn-navavi*. baskı 3, şam: darül-kutubil-ilmiye, 1417.
Eş-şâfiî, Muhammed b. İdris. *Er-risala*. baskı 1, mısır: mektebetül-halabi, 1940.
Ez-zehebi, Muhammed b. Ahmed. *Siyerü- ââlamün-nübela*. baskı 9, beyrut: müassesetür-Risale, 1993
Hattabi, Hemed b. Muhammed. *Mââlimüs-sünen*. baskı 1, helap: el-matbatül-ilmiye, 1932.
Heykel, Muhammed Hüseyin. *Hayât Muhammed*. baskı 14, Kahira: darül-mâârif, tarih yok.
İbnî abi şeybe, Abdullah b. Muhammed. *El-musannaf*. baskı 2, Riyad: mektebetü-Rûşd, 1409.
İbn âzâri elmûrrakeşi, Muhammed b. Muhammed. *El-beyanül-Muğrib fi ehbâril-endelüs ve el-Meğrib*. baskı 3, beyrut: darüs-sekafe, 1983.
İbn errâk elkînanî, Muhammed b. Ali. *Tenzihüş-şeri-atül-mêrfûââ*. baskı1, beyrut: darül-Kutubil-ilmiye, 1399.
İbn Hanbel, Ahmed. *El-İlel ve Meârifetür-ricâl*. baskı 1, beyrut: elmektebül-İslâmî, 1988.
İbn Hacar, Ahmet b. Ali. *Lisânül-mizan*. baskı 3, beyrut: müassesetûl-Ââlemî, 1986.
İbn Hacar, Ahmet b. Ali. *Nüzhetün-nezer fî tevdihi nûhbetil-fiker*. baskı 2, Şam: matbââtüs-sabah, 1993.
İbn Hîbban, Muhammed. *Kitebül-Mecrûhîn*. baskı yok, beyrut: Darül-Meârife, 1992.
İbn maca, Muhammed b. Yeziyd. *Es-sünen*. baskı yok, beyrut: darül-fikir, tarih yok.
Ibnül-cevzî, Abdurrahman b. Ali. *El-mevzûâât*. baskı 1, medine: el-mektebetüs-Selefîye, 1966.
İbnül-Kayyim, Muhammed b. Abîbekir. *İlamûl-Müvakki'iyn an rabbîl-ââlemîn*. baskı 1, Suudi Arabistan: dâr İbnül-cevzî, 1423.
İbnül-Kayyim, Muhammed b. Abibekir. *Zadûl-mââd fi hedyî rabbil-İbâd*. baskı 27, beyrut: müassesetür-Risale, 1994.
İtir, Nûreddin. *Es-sünnetül-mutahhara ve et-tahadiyât*. sayı 3, Katar: mecelletü merkezi buhûsüs-sünne, 1988.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Karzâvî, yûsuf. *Es-sünne masdaran lil-mâârifa*. baskı 3, Kahira: dâr eş-şurûk, 2002.
Kurtubi, Muhammed b. Ahmed. *El-câmi li-ehkemül-kurân*. baskı 2, Kahira: darûl-kutubi-mısrıya, 1964.
Müslim. *Es-sahîh*. baskı yok, beyrut: darül-cîl, tarih yok.
Tirmizî, Muhammed b. İsa. *El-Câmî*. baskı yok, beyrut: dâr ihyâ-üt-türâs elarâbî, tarih yok.
Üteybî, sââd b. Beced. *Mevkifül-itticâhül-aklânî elmü-Ââsir min en-nas eş-şerîî*. baskı 3, riyad: dar elvaai, 2013.
Yâsîn, Abdülcevâd. *Es-sulta fî el-islâm*. baskı 2, Ed-dârül-beyzâ: elmerkezüs-sekâfî el-arâbî, 2000.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner